الديناميكية الجديدة للسياسة التركية تجاه العراق

بلغاي دومان

اتجاه السياسة التركية بشأن العراق أيضا قد تغير وفقاً لطبيعة كل مرحلة. إن تركيا حاولت من وقت لآخر الحفاظ على علاقاتها مع العراق من خلال الحكومة المركزية في بغداد، لكنها اتبعت في أوقات أخرى سياسات مع الجهات الفاعلة المحلية في هذا البلد أيضاً.

عند النظر إلى مسار العلاقات الثنائية بين تركيا والعراق، سنرى أنها شهدت تقلبات بين الصعود والهبوط من مرحلة إلى أخرى، لاسيما بعد عام 2003. ويمكن القول إن العلاقات بين البلدين تشكلت بناء على تأثيرات الديناميّات السياسية الإقليمية والدولية إضافة إلى تصورات مصالح البلدين والتهديدات التي تواجههما. لهذا السبب, يمكن الحديث عن تحولات طبيعية في العلاقات. ونتيجة لهذه التحولات, يلاحظ أن اتجاه السياسة التركية بشأن العراق أيضا قد تغير وفقاً لطبيعة كل مرحلة. إن تركيا حاولت

من وقت لآخر الحفاظ على علاقاتها مع العراق من خلال الحكومة المركزية في بغداد، لكنها اتبعت في أوقات أخرى سياسات مع الجهات الفاعلة المحلية في هذا البلد أيضاً. والدافع الرئيس وراء ذلك، هو تأثير التطورات في العراق على تركيا، فضلا عن كون العراق جاراً حدودياً لتركيا. حيث أثّر كل تطور في العراق، ولايزال يؤثر تقريباً، بشكل مباشر أو غير مباشر على تركيا. وفي هذا السياق، يمكننا القول إن تركيا تحاول التعامل مع التطورات السياسية في العراق، من خلال استخدام فرص التعاون وعلاقاتها مع الجهات الفاعلة المحلية في هذا البلد أو الأطراف الإقليمية والدولية المؤثرة في الشأن العراقي. وتعطي تركيا الأولوية في سياساتها تجاه العراق إلى استقرار هذا البلد، كما أنها تشكل سياستها على أساس مبدأين أساسيين هما: الحفاظ على وحدة أراضي العراق وتحقيق وحدة العراق السياسية. وفي هذا الإطار، أبدت تركيا دائما دعمها الواضح والصريح لعملية التحول الديمقراطي والمأسسة في العراق. ويمكن القول إن تركيا اتبعت سياسات مختلفة وفق لكل مرحلة، لا سيما في فترة ما بعد عام 2003، على النحو التالي:

فترة سياسية ذات علاقة منخفضة: 2005-2003

فترة سياسية ذات توجه مركزي: 2009-2005

فترة سياسية ذات توجه محلي: 2014-2010

فترة سياسية ذات تقلبات وركود: 2016-2014

فترة الانتقال إلى السياسة المركزية والسياسات المتوازنة: 2017 وما بعده.

في واقع الأمر، عندما ننظر إلى التطورات في تلك الفترات يظهر لنا هذا الاختلاف في العلاقات. حيث كان لتركيا تأثير محدود نسبياً في العراق خلال الفترة السياسية ذات العلاقات المنخفضة بين عامي 2003-2005. ومع رفض مجلس الأمة التركي الكبير (البرلمان) التصديق على السماح للقوات الأمريكية بالدخول إلى

العراق عبر الأراضي التركية، تم وضع حد للنفوذ التركي في العراق بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وبقيت العلاقات مع العراق على مستوٍ منخفض حتى العام 2005. لكن انخراط تركيا الفعّال في إعادة دمج السنة الذين أبعدوا عن السياسة بعد الإطاحة بنظام صدام حسين في العملية السياسية, أثناء عملية الانتخابات وكتابة الدستور في العراق عام 2005، والتطورات الإقليمية التي حصلت، أعادت تركيا إلى المعادلة العراقية.

وعقب هذه المرحلة، وصلت العلاقات التركية العراقية التي كانت على مستوٍ عالٍ حتى عام 2009, إلى ذروتها مع تأسيس المجلس الأعلى للتعاون الاستراتيجي بين البلدين في عام 2008, وتوقيع 48 مذكرة تفاهم في صيف 2009 في العديد من المجالات بدءاً من الأمن إلى الطاقة، ومن التعليم إلى النقل، ومن الإسكان إلى الصحة.

دخل العراق مرحلة الانتخابات البرلمانية في العام 2010, وتوحّدت خلالها الجماعات المعروفة بعلاقاتها الوثيقة مع تركيا تحت اسم القائمة العراقية برئاسة إياد علاوي لدخول الانتخابات التي جرت في7 مارس/ آذار 2010, وتمكنت القائمة العراقية من الفوز في الانتخابات بحصولها على أكبر عدد من الأصوات. إلّا أن ذلك الأمر أزعج نوري المالكي المعروف بقربه من إيران, والذي كان يهدف للفوز بولاية ثانية. وهكذا بدأت العلاقات بين تركيا والحكومة المركزية العراقية تتوتر. ورغم فوز القائمة العراقية إلّا أن الائتلاف الوطني الذي يتشكل من المجموعات الشيعية في العراق انتخب نوري المالكي لرئاسة الوزراء, ما أدى إلى بدء تدهور علاقات تركيا مع الحكومة المركزية, وازداد هذا التوتر عندما اتخذت تركيا والعراق مواقف مختلفة تجاه الأحداث التي اندلعت في سوريا في عام 2011.

لهذا السبب، بدأت تركيا في اتباع سياسة ذات توجه محلي في العراق بعد عام 2010، وحاولت إحداث تأثير في هذا الاتجاه. وكادت العلاقات مع الحكومة المركزية العراقية أن تصل إلى نقطة الانقطاع في تلك المرحلة، لاسيما جراء الاتفاقات المبرمة مع حكومة إقليم كردستان شمال العراق في مجالي الطاقة والتجارة. لكن، يمكننا القول إن السياسة التي كانت تتبعها تركيا مع حكومة إقليم كردستان شمال العراق، يكمن خلفها رغبة تركيا في ضمان تقوية علاقتها بحكومة إقليم كردستان، التي أخذت تبتعد تدريجياً عن الحكومة المركزية، وسعت لتشكيل أجندة سياسية خارجية مستقلة، لذلك حاولت تركيا منع حكومة الإقليم من اتخاذ أي خطوات قد تضر بتركيا.

من جانب آخر، على الرغم من بروز بريق أمل لتحسين العلاقات مع الحكومة المركزية العراقية بعد تشكيل حيدر العبادي حكومة جديدة بعد انتخابات عام 2014، إلّا أن المرحلة التي حدثت بعد ظهور داعش في العراق حالت دون حدوث خفض التوتر في العلاقات بين البلدين. حتى أن هذا التوتر وصل إلى أعلى مستوى مع أزمة معسكر بعشيقة، وأظهر احتمالية مواجهة عسكرية بين تركيا والعراق. لكن على الرغم من ذلك، أبدت تركيا موقفاً معتدلاً بشأن علاقاتها مع العراق، وتبنت سياسة حل القضايا العالقة من خلال الحوار، لاسيما قضية معسكر بعشيقة.

يمكن القول إن الميل نحو تحسين علاقات تركيا مع العراق بدأ مع تغير مفهوم السياسة الخارجية لأنقرة. حيث بدأت تركيا في يونيو/ حزيران 2016, بإطلاق مبادرة متزامنة للرئيس رجب طيب أردوغان, لتحسين العلاقات مع روسيا التي كانت بينهما أزمة استمرت لمدة سبعة أشهر, ومع إسرائيل التي انقطعت معها العلاقات الدبلوماسية لمدة خمس سنوات, وبذلك أعطت تركيا إشارات لحدوث تحول في السياسة الخارجية التركية. وفي الفترة التالية, فتح التعاون والتقارب بين روسيا وتركيا وإيران بشأن وقف إطلاق النار والعملية السياسية في سوريا, مساحة سياسية لتركيا. وكانت الخطوة الملموسة الأولى نحو تحسين العلاقات التركية العراقية عندما قام رئيس الوزراء في ذلك الوقت بن علي يلدريم, بأول زيارة خارجية له إلى العراق في عام 2017.

وفي هذه المرحلة، لوحظ ازدياد التعاون بين تركيا والحكومة المركزية في العراق بعد استفتاء الاستقلال الذي أجرته حكومة إقليم كردستان شمال العراق في 25 سبتمبر/ أيلول 2017. كما أجرى رئيس الوزراء العراقي آنذاك حيدر العبادي زيارة إلى تركيا في 25 أكتوبر/ تشرين أول 2017. وأجرى عقبها وزير الخارجية مولود جاويش أوغلو زيارة إلى العراق. كما كانت تركيا الدولة الأكثر مساعدةً للعراق وقدمت له قرضاً

بلغ 5 مليارات دولار من أجل عملية إعادة إعمار هذا البلد, في المؤتمر الدولي لإعادة إعمار العراق الذي عقد في الكويت في 12-14 فبراير/ شباط 2018. وقام الرئيس العراقي برهم صالح الذي تولى منصب الرئاسة عقب انتخابات عام 2018, بأول زيارة خارجية له إلى تركيا مطلع عام 2019.

اتخذت تركيا موقفاً محايداً خلال المظاهرات الاحتجاجية التي شهدها العراق في أكتوبر/ تشرين أول 2019, ودعمت المطالب الأساسية للشعب العراقي في العيش الكريم, ووقفت إلى جانب الحكومة العراقية فيما يتعلق بالحفاظ على النظام. واستمرت العلاقات التركية العراقية من خلال الزيارات المتبادلة بين الجانبين. حيث أجرى رئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي زيارة إلى تركيا في 17 ديسمبر/ كانون أول 2020 على رأس وفد كبير. من ناحية أخرى، استمرت مرحلة الحوار بين أنقرة وأربيل بالتوازي مع العلاقات مع الحكومة المركزية. وفي الوقت الذي لم يتم فيه تجاهل أربيل خلال الزيارات التركية إلى العراق، فإن الزيارات من إقليم كردستان إلى تركيا لم تتوقف أيضا. وفي تلك المرحلة، لوحظ أن هناك علاقات وثيقة بين رئيس حكومة إقليم كردستان العراق نيجيرفان بارزاني وأنقرة.

يمكن القول في هذا الإطار، إن تركيا تتعامل مع العراق من منظور شامل. حيث لم تعتبر تركيا أي من بغداد أو أربيل بديلاً عن الآخر، بل هي تراهما مكملين لبعضهما البعض. وفي واقع الأمر، كان لقاء نيجيرفان بارزاني مع الرئيس رجب طيب أردوغان خلال زيارته الأخيرة لأنقرة وتصريح أردوغان بعد اللقاء بأنهما ناقشا سبل تشكيل الحكومة مع نيجيرفان بارزاني، مؤشراً ملموساً على رؤية تركيا للعلاقات بين بغداد وأربيل.

ولو أخذنا بعين الاعتبار الوضع الراهن، سنرى أن هناك ديناميّة جديدة في العلاقات التركية العراقية. وبالإضافة إلى الاتفاقية التي تم التوصل إليها بين تركيا والعراق في الأشهر الأخيرة بشأن الصناعات الدفاعية، من المتوقع اتخاذ خطوات جديدة في مجالات النقل والموارد المائية والزراعة. وفي هذا السياق، أجرى مدير عام السكك الحديدية التركية متين أكباش زيارة إلى بغداد في أواخر يناير/ كانون الثاني الماضي. وبعد ذلك مباشرة، توجه وزير الزراعة والغابات بكر بكدميرلي إلى بغداد في إطار المؤتمر الإقليمي لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو). جدير بالذكر أن هناك نقاط محورية مختلفة قد بدأت في الظهور في علاقات تركيا مع العراق. وتعد هذه الزيارات أكبر مؤشر على أن العلاقات بين البلدين ستتقدم إلى أبعد من ذلك في الفترة المقبلة، في حال تشكيل حكومة متوازنة تنجح في تحقيق الاستقرار السياسي في العراق. ■

بلغاي دومان: باحث وأكاديمي من تركيا، منسق دراسات العراق في مركز أورسام.